الفصل الرابع والأربعون

بطرس باشا غالي

شكل ٤٤-١: بطرس باشا غالي (ولد سنة ١٨٤٧ وتوفي سنة ١٩١٠).

نشأته المدرسية

هو أكبر أنجال المرحوم غالي بك نيروز، ولد في القاهرة سنة ١٨٤٧ ووافق نشوءه نهضة تعليمية ظهرت في الطائفة القبطية على يد المرحوم الأنبا كيرلس الرابع المتوفى سنة ١٨٦١ بعد أن أسس المدارس القبطية في الأزبكية وحارة السقايين. دخل صاحب الترجمة مدرسة حارة السقايين فنبغ بين أقرانه، وكان البطريرك المشار إليه يتعهد المدارس بنفسه ويراقب سيرها، فلحظ في الفقيد ذكاءً واجتهادًا ممتازين، فتحدث فيما يرجوه من مستقبله. ويذكرون أن أستاذه في اللغة الفرنساوية كان المرحوم مصطفى بك رضوان، فلما صار صاحب الترجمة وكيلًا للحقانية عيَّنه رئيسًا لمحكمة المنصورة.

قضى بطرس ثماني سنوات في مدرسة حارة السقايين، ثم انتقل إلى مدرسة البرنس فاضل باشا (أبي الأحرار العثمانيين)، وكان والده غالي بك يشتغل في دائرة البرنس المذكور، فأتقن فيها اللغتين العربية والفرنساوية، وتعلم الفارسية والتركية، وفي تلك المدرسة ظهرت رغبته في العلم وتلذذه بالدرس — فقد حدثنا بعض الذين عاشروه في صباه أنه كان يقضي ليله ساهرًا لا يملُّ المطالعة، حتى شكى بعضهم ذلك إلى أبيه خوفًا على صحته. وقد ساعده على إتقان اللغات التي تعلمها أنه كان قوي الذاكرة يحفظ الصفحة والصفحات بعد تلاوتها. ذكروا أن معلم الفرنساوية فرض على الصف مرة حفظ ثماني صفحات من الأجرومية فتذمروا من طول الأمثولة وفي جملتهم بطرس، لكنه جرَّب حفظها فاستسهله، فحفظ ما بقي من الكتاب. ولما جاءَ التلاميذ للتسميع في اليوم التالي اعتذر الجميع بطول الأمثولة إلا هو فسمَّع الدرس وسائر ما بقي من الكتاب، فأثنى الأستاذ على ذكائه واجتهاده.

ومن أدلة رغبته في العلم أنه وهو يتعلم الفارسية والتركية في المدرسة المذكورة لم يكن يرتوي من شرح المعلم، فاتخذ أستاذًا فيهما من أهل خان الخليلي، كان يدفع له أجرته مما يجمعه من البارات التي كان أبوه يعطيه إياها ليتفكَّه بها. وقد أتقن هاتين اللغتين وما زال إلى أواخر أيامه يردد بعض الأبيات الفارسية التي حفظها في صباه، أما التركية فأحسنها جيدًا. وخرج من هذه المدرسة وهو يعرف أربع لغات ثم تعلم الإنكليزية والإيطالية والقبطية، ولم يكن يحتاج في درس اللغة إلا إلى الإرادة، فإذا أراد وعزم فثباته وذكاؤه يضمنان سرعة اكتسابه ذلك اللسان. وحكي لنا عن سبب تعلُّمه اللغة القبطية أن بعض المستشرقين لقيه في بعض سياحاته بأوروبا وكلمه بالقبطية

فأجابه جوابًا ضعيفًا؛ لأنه لم يكن يحسنها، ووعده أن يكاتبه بها بعد عودته إلى مصر ببضعة أشهر، وقد فعل.

دخوله في عالم العمل

خرج من المدرسة فكان أول عمل تعاطاه التعليم في مدرسة حارة السقايين براتب قدره سبع مئة غرش، وكان ناظر المدرسة يومئذ يعقوب بك نخلة رفيله. ولكنه لم يمكث طويلًا في تلك المهنة لأن مطامعه كانت أوسع من ذلك كثيرًا، فعمد إلى الاستزادة من العلم الذي يؤهله للعلى. وكانت الحكومة المصرية يومئذ تهتم في إخراج المترجمين لمصالحها، وقد أنشأت مدرسة الترجمة للمرحوم رفاعة بك ونبغ منها طبقة حسنة من المترجمين فلازمها بطرس سنتين أتقن في خلالهما ما كان يعرفه.

واتفق أن مجلس تجار الإسكندرية أراد توسيع دائرته فاحتاج إلى كنبة ومترجمين، فتقدم بطرس في جملة الطالبين للامتحان، فنال قصب السبق فتعين كاتبًا. ولكنه ما زال يرتقي ويحرز ثقة رؤسائه حتى صار رئيس كتاب المجلس، وله فيه القول الفصل. وهو في ذلك المنصب نُظرت قضية في المجلس المذكور لأحد صنائع المرحوم إسماعيل باشا المفتش، وصدر الحكم ضده فادَّعى الرجل أن بطرس أضاع حقه بإفشاء بعض أسرار المصلحة، وأبلغ ذلك إلى مولاه المفتش، فأبلغ المفتش ذلك إلى ناظر الداخلية يومئذ شريف باشا، وكانت مجالس التجار تابعة لها. فدعاه الناظر إليه بحضرة المفتش، وسأله عن التهمة فتنصل منها، وقص الحقيقة بحرية واستقلال فكر. فلم يعجب المفتش تنصله، فأخذ يكلم شريف باشا بالتركية طعنًا فيه، فردَّ عليه بتلك اللغة ردًّا بليغًا أدهش الرجلين، وحكما ببراءته وأعجبا ببراعته.

ولما تأسست المحاكم المختلطة جعلوها نظارة مستقلة سموها نظارة الحقانية برئاسة شريف باشا، وكان قد عرف اقتدار صاحب الترجمة فولاه رئاسة كتابها سنة ١٨٧٤ فأخذت مواهبه تظهر من ذلك الحين، فاشتغل مع المرحوم قدري بك في ترجمة قوانين المحاكم وأكثرها يعمل به إلى اليوم.

ولما ارتابت الدولتان إنكلترا وفرنسا في مالية مصر، وعينتا مندوبين لتصفية ديونها شكَّلوا مجلسًا من كبار رجال المالية وفيه رياض باشا نائبًا عن الحكومة المصرية، وعينوا بطرس مساعدًا. ثم تبدلت الأحوال فصار رياض باشا رئيس المجلس وبطرس وكيلًا في الدفاع عن مصالح الحكومة، وقد أتاه هذا المنصب على غير استعداد، إذ لم

يكن له إلمام في الشئون المالية، ولكنه عوَّل على نفسه، وأكب على دراسة الموضوع فقضى ليلتين وهو يفكر فيه ويدرسه حتى تمكن من خاطره، فوضع تقريرًا ومذكرة عن الضرائب والأطيان كأنه درس الموضوع من عدة أعوام، وقد طبعا باللغتين الفرنساوية والعربية. وعوَّل عليهما أكثر الذين كتبوا في مالية مصر وأطيانها بعده. ويقال: إن السير ريفرس ولسن مندوب إنكلترا في ذلك العمل لما رأى اقتدار صاحب الترجمة، قال له: «إنك ستكون ناظرًا للمالية يومًا ما» ومنحته الحكومة الرتبة الثانية — والرتب يومئذ عزيزة جدًّا. ولكنه أصيب على أثر ذلك بحمى تيفوسية شديدة حتى يئس الأطباء من شفائه.

وبعد الانقلاب الذي خلع فيه إسماعيل وخلفه المغفور له توفيق باشا عين صاحب الترجمة (بطرس بك غالي) وكيلًا لنظارة الحقانية. ولما تشكلت وزارة شريف باشا في أثناء الثورة العرابية عهدت إليه سكرتيرية مجلس النظار مدة، ثم استقل بوكالة الحقانية وأنعم عليه برتبة ميرميران الرفيعة سنة ١٨٨٢ وهو أول من حازها من الأقباط.

ومن الخدم التي يؤثرونها له في أثناء الثورة العرابية أن العرابيين بعد أن فروا من التل الكبير وأتوا القاهرة عقدوا مجلسًا للمفاوضة في ماذا يفعلون، ودعوا إليهم كبار الرجال من الأمراء العسكرية والملكية، وشاوروهم في ما ينبغي عمله، فكان رأي بطرس باشا التسليم للخديوي والرجوع عن العصيان، وكتبوا بذلك عريضة عهدوا إلى صاحب الترجمة ومحمد رءوف باشا بإيصالها إلى أصحاب الشأن في الإسكندرية، فذهبا نائبين عن الأمة المصرية في تقديم الطاعة للحضرة الخديوية.

وظل وكيلاً لنظارة الحقانية عدة سنين بعد الاحتلال، وفي سنة ١٨٩٣ رُقِّي إلى منصب الوزارة فتعين ناظرًا للمالية في وزارة رياض باشا. ثم انتُخِب ناظرًا للخارجية سنة ١٨٩٥ في وزارة مصطفى فهمي باشا، وظهرت مواهبه هنا بحل المشكلات التي تعرض لناظر الخارجية؛ نظرًا لكثرة علائق مصر مع الدول من حيث المالية والسياسة وغيرهما. وقد شهد له اللورد كرومر بالاقتدار على حل المشكلات غير مرة، ومازال في هذا المنصب حتى سقطت الوزارة الفهمية فوقع الاختيار عليه لتشكيل وزارة جديدة، فشكَّلَها في ١٠ نوفمبر سنة ١٩٠٨ وتولى رئاستها مع نظارة الخارجية وهو أكبر منصب يرجوه ابن النيل. وفي عهد وزارته همت الحكومة بتوسيع اختصاصات مجلس شورى القوانين، فقررت اشتراك الأمة في النظر بمشروعاتها بعرضها على المجلس، ويحضر

الوزراء للمناقشة فيها وأشياء أخرى، وقد انتقدوا عليه بعض أعمال الحكومة التي تمت في عهد وزارته مما يرونه مغايرًا لمصلحة مصر أو مخالفًا للشعور الوطني، ولكنه أتاه وهو يعتقد نفعه لمصر لأنها وطنه وهو شديد الغيرة عليها — أو أنه لم ير بدًّا منه. وما زال عاملًا مجدًّا حتى قتل في ٢٠ فبراير سنة ١٩١٠ وقاتله شاب اسمه ناصف الورداني أطلق عليه أربع رصاصات من مسدسه في باحة نظارة الخارجية وهو يهم أن يركب عربته. وقد قُبِض على الجاني واعترف بالجناية بلا تهيب، وقال: إنه قتله لأنه أمضى اتفاقية السودان وترأس محكمة دنشواي، وأعاد قانون المطبوعات، وقاوم الجمعية العمومية، ورضي بمشروع القناة. وقد حوكم القاتل وحكم عليه بالإعدام.

مناقبه وأخلاقه

قد تبين مما ذكرناه من ترجمة حياته أنه كان عالي الهمة، كبير المطامع، ذكي الفؤاد، قوي الحافظة، شديد العارضة. وكان قوي البنية، ربع القامة، ممتلئ الجسم، ونظرًا لثباته وقوة عزيمته لم يكن يصعب عليه عمل، فارتقى من بين العامة إلى أسمى المناصب المصرية بعد الإمارة بجدِّه وقوة عقله وثباته، فيصح أن يكون مثالًا لطلاب العُلى. وكان واسع الاطلاع في أهم مناهج الحكومة المصرية في المالية والقضاء والسياسة؛ فضلًا عن معرفته اللغات فإنه أتقن منها العربية والفرنساوية والإنكليزية والإيطالية والتركية، ويعرف أيضًا القبطية والفارسية وبعض الألمانية.

وكان مستقل الفكر يكره الدالة والوساطة، وينظر إلى حقائق الأشياء دون أعراضها. ومما يروى عن تقديره الأشياء حق قدرها أنه لما أخذت الحكومة في إنشاء المحاكم الأهلية، وكان هو وكيلًا للحقانية احتاجت الحكومة إلى موظفين لتلك المحاكم، فأعلنت ذلك وتقدم طلاب الخدمة بالعرائض ولكل منهم وسيط من الكبراء على جاري العادة في ذلك العهد إذ كان للدالة والوساطة شأن عظيم. واستخرج كُتَّاب الحقانية أسماء الطالبين في كشف شبه جدول دوَّنوا فيه اسم كل طالب، وذكروا إلى جانبه اسم الكبير الذي توسط له أو أوصى به. ورفعوا ذلك الكشف إليه فقرأه، فرأى اسم أحد الطالبين في آخر الكشف وليس له وسيط، وكان قد تحقق بالفعل أنه كفءٌ للعمل فنقل اسمه إلى أعلى الكشف، وكتب بجانب اسمه في محل اسم الوسيط لسائر الطالبين «وسيطه الله» يريد أن لا وسيط له غير الله، وقد نال الوظيفة.

وكان واسع الاطلاع في أحكام الشريعة الإسلامية، وقد شهد له أئمتها بالتبحر فيها، وكان لا يزال إلى الأمس يترأس كومسيون المجالس المختلطة، والأولى بذلك رسميًا ناظر الحقانية. وكان دقيقًا في إنجاز ما عليه لا يبالي بالتعب أو السهر. وكان لحسن أسلوبه ونفوذ كلمته وقوة حجته يكلفونه التوسط في حل ما يعرض من سوء التفاهم بين العناصر المختلفة أو القوات المضادة في هذا القطر؛ فضلًا عما يدخل في واجباته من التوسط بين مصر والدول الأخرى وهو ناظر الخارجية. ومما يذكر من مأثره في حل المشكلات أنه اغتنم ذهابه بمعية الجناب العالي إلى الأستانة سنة ١٩٠٥ وتشرف بالمثول لدى جلالة السلطان وجرى الحديث بينهما بالتركية فحل مسألة دير السلطان بالقدس.

وكان للجناب العالي ثقة فيه يعول عليه في الأمور الهامة؛ ولذلك كان أسف سموه عليه كبيرًا حتى تنازل لزيارته وهو مريض في المستشفى. ثم شرف بيته بعد الوفاة لتعزية أبنائه وأخيه، وهذا التفات لم يسمع بمثله في مصر.

وكان يميل إلى المطالعة في ساعات الفراغ، وأكثر مطالعاته في التاريخ وفيه ميل إلى المواضيع الفلسفية النظرية، وفي داره مكتبة نفيسة وكان يطالع الصحف كل يوم بسرعة غريبة.